



This work is licensed under a
[Creative Commons Attribution 4.0
International License](https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/)



RAHAT-UL-QULOOB

Bi-Annual, Trilingual (Arabic, English, Urdu) ISSN: (P) 2025-5021. (E) 2521-2869
Project of RAHATULQULOOB RESEARCH ACADEMY,
Jamiat road, Khiljiabad, near Pak-Turk School, link Spini road, Quetta, Pakistan.
Website: www.rahatulquloob.com

Approved by Higher Education Commission Pakistan

Indexing: » Australian Islamic Library, IRI (AIU), Tahqeeqat, Asian Research Index,
Crossref, Euro pub, MIAR, ISI, SIS.

TOPIC

البناء المعجمي والبلاغي في آية "وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَأْ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَفُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى
الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ" دراسة تحليلية

AUTHOR

1. Shams Ud Din, Ph.D Scholar, Faculty of Arabic, International Islamic University Islamabad, Pakistan.
2. Dr. Habib Ullah Khan, Assistant Professor, Faculty of Arabic, International Islamic University Islamabad, Pakistan.

How to Cite: Shamsuddin, & Dr. Habibullah Khan. (2023). ARABIC: البناء المعجمي والبلاغي في آية "وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَأْ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَفُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ" دراسة تحليلية: Lexical and rhetorical structure in verse "And it was said, "O earth! Swallow up your water. And O sky! Withhold 'your rain'." The floodwater receded and the decree was carried out. The Ark rested on Mount Judi, and it was said, "Away with the wrongdoing people!" an Analytical study. *Rahat-Ul-Quloob*, 7(2), 01-22. <https://doi.org/10.51411/rahata.7.2.2023/447>

URL: <http://rahatulquloob.com/index.php/rahata/article/view/447>

Vol. 7, No.2 || July–December 2023 ||ARBIC-Page. 01-22

Published online: 18-09-2023

البناء المعجمي والبلاغي في آية " وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَأْ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ

وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ" دراسة تحليلية

Lexical and rhetorical structure in verse "And it was said, "O earth! Swallow up your water. And O sky! Withhold your rain". The floodwater receded and the decree was carried out. The Ark rested on Mount Judi, and it was said, "Away with the wrongdoing people!"

Analytical study

¹ شمس الدين ² حبيب الله خان

ABSTRACT:

This article contains the linguistic and rhetorical analysis of one verse of Surat Hud,

" وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَأْ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ".

The researcher began his research by explaining each word of the noble verse, indicating the linguistic meaning and the meaning intended for it, citing the opinions of scholars. Then he touched on the rhetorical analysis of the noble verse, showing the phenomena of the knowledge of the meanings present in the noble verse, namely: separation and connection, introduction and delay, remembrance, and deletion, definition, and disapproval. Generous are anaphora, counterpoint, contrast, sound reasoning, synonyms, puns, illusion, eloquence, good eloquence, and other types describing its rhetorical secrets. Finally, he wrote his findings during the writing of this article.

Keywords: separation, illusion, eloquence, good eloquence.

وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَأْ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ

الظَّالِمِينَ¹

معاني كلمات الآية الكريمة على جهة التفصيل لغة واصطلاحاً.

الواو الواقعة في بداية الآية الكريمة هي حرف عطف لمطلق الجمع. قال الإمام سيبويه: "قولك مررت

برجلٍ وحمارٍ، كأنك قلت مررتُ بهما، وليس في هذا دليل على أنه بدأ بشيءٍ قبل شيءٍ، ولا بشيءٍ مع شيءٍ".²

وقال ابن مالك في التسهيل: وكونها للمعية راجعٌ وللترتيب كثيرٌ، لعكسه قليلٌ، انتهى".³

وليس بمنافٍ لقول الإمام سيبويه كما توهمه بعض العلماء، فكونها للمعية تعطف الشيء على صاحبه، كقوله

—تعالى: (فَأَخْيِرْتُهُ وَأَضْحَبَ السُّفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ)⁴. وكونها للترتيب تعطف الشيء على سابقه كقوله —تعالى:—

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ)⁵.

ولعكسه تعطف الشيء على لاقحه كقوله تعالى: كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ⁶.
وقد اجتمعا - أي السابق واللاحق - في قوله - تعالى: (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَوَعَدْنَا إِبْرَاهِيمَ
وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِيثَاقًا غَلِيظًا)⁷.

إذا تقرر ذلك، فإذا قلت: قام زيدٌ وعمرو، احتمل المعية والترتيب وعكسه. وأنا (قيل): فهو فعل ماضٍ بُني للمفعول مشتق من القول وهو: اللفظ المركب من الحروف، المستعمل مفردًا كان أو جملةً.
وهذا هو القول حقيقةً، وقد يطلق مجازًا على ما في النفس كقوله تعالى: (وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَمِئْسَ الْمَصِيرُ)⁸.

ويطلق على الاعتقاد نقول: فلان يقول بقول الشافعي. ومنه حديث ابن المسيب، وقد قيل له: ما تقول في عثمان وعلى رضي الله عنهما، فقال: أقول ما قولني الله، ثم قرأ: (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)⁹، يقال: قولني أي: علمني ما أقول. وعلى الدلالة نحو:

امتلاً الحوض وقال قطني مهلاً رويداً قد ملأت بطني

أي امتلاً الحوض تماماً حتى كأنه تكلم فقال: كفاي ما صببت في جوفي، والعرب تجعل "القول" عبارة عن جميع الأفعال وتطلقه على غير الكلام واللسان، فتقول: قال بيده أي: أخذ، وقال برجله أي مشى، وقالت له العينان سمعاً وطاعةً أي: أوامث، وقال بالماء على يده أي قلب، وقال بثوبه أي رفعه.

وكل ذلك على المجاز والاتساع. ومقتضى قول العلامة الزمخشري ومن تبعه: حمله في هذه الآية على الإرادة مجازاً واتساعاً، فعليك بعبارة العلامة الزمخشري: "نداء الأرض والسماء بما يُنادي به الحيوان المميز على لفظ التخصيص والإقبال عليهما بالخطاب من بين سائر المخلوقات وهو قوله: "يَا أَرْضُ وَيَا سَمَاءُ" ثم أمرهما بما يؤمر به أهل التمييز والعقل من قوله "ابلعي ماءك وأقلعي" من الدلالة على الاقتدار العظيم وأن السموات والأرض وهذه الأجرام العظام منقادة، لتكوينه فيها ما يشاء، غير ممتنعة عليه، كأنها عقلاء مميّزون قد عرفوا عظمتهم وجلالته، وثوابه وعقابه وقدرته على كلِّ مقدور وتبَيَّنُو تَحْتَمُّ طاعته عليهم وانقيادهم له، وهم يهابونه ويفزعون من التوقُّفِ دون الامتثال له، والنزول على مشيئته على الفور من غير ريث، فكما يرد عليهم أمره كان المأمور به مفعولاً لا حبس ولا إبطاء.¹⁰

قول العلامة مردود بوجوه:

أحدها: أن القدرة صالحة لذلك فلا مانع.

ثانيها: أنه أعظم في القدرة وأبلغ في العظمة، وأقوى في الحجة. والمقام يقتضي ذلك، وما كان كذلك فهو أولى بالترجيح وأحرى بالتصحيح.

ثالثها: أنه الظاهر ولا دليل يصرفه عن ظاهره، فالحمل بالحقيقة فيه هو الصواب. وقد صرح الناس قديماً وحديثاً بأن الله - تعالى لا يجوز أن يتكلم بشيء ويعني به خلاف ظاهره.

رابعها: أن الحقيقة في الكلام هي الأصل فإذا تعارض المعنى الحقيقي والمجازي، فالحقيقي أولى؛ لأن المجاز خلاف الأصل كما هو مقرر عند أئمة الأصول.

ولهذا لما اختلف الفقهاء في لفظ النكاح هل هو حقيقة في العقد مجاز في الوطء؟ كما ذهب إليه الإمام الشافعي أو بالعكس كما ذهب إليه غيره، فلو حلف على النكاح ولم ينو شيئاً فإنه يحمل على العقد عنده؛ لأنه حقيقة لا على الوطء؛ لأنه مجاز فيه. كذا لو قال لزوجته: أنت طالق يوم يقدم زيد، فقدم ليلاً فإنه لا يقع الطلاق على الصحيح، بل الصواب؛ لأن اليوم حقيقة ما بين الفجر والغروب.

ثم إنه ينبغي أن يُعلم أن من ادعى صرف لفظ عن ظاهره وعيّن له مجازاً لم يتم له رعاية ذلك إلا بعد

أربع مقدمات:

أحدها: بيان امتناع إرادة الحقيقة.

ثانيها: بيان صلاحية اللفظ للمعنى الذي عينه وإلا كان كاذباً على اللغة.

ثالثها: بيان ذلك المجمل إن كان له عدّة مجازات.

رابعها: الجواب عن الدليل الموجب لإرادة الحقيقة، فما لم يقر بهذه الأمور الأربعة كانت دعواه صرف اللفظ عن ظاهره دعوى باطلة.

وهنا إرادة الحقيقة ليست متعذرة فلا أجل هذا لا يُراد من القول المعنى المجازي.

وإذا عرف ذلك فنقول: أصل هذا الفعل (قَوْل) فلما فتحت وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً، فلما بُني للمفعول هو

وسائر أخواته من معتل العين الواوي واليائي، جرت للعرب في ذلك ثلاث لغات:

الأول: كسر فاء الكلمة كسراً خالصاً فتقلب الألف ياءً فنقول: قيل وبيع، وهذه لغة الحجازيين: قريش ومن جاورهم وربما قرء بها أكثر القراء.

الثانية: إشمام الكسرة الضم، والإشمام: هو النطق بحركة صوتية تجمع بين الضمة والكسرة على التوالي السريع بغير مزج بينهما. وهي لغة كثير من قيس وعامة أسد، وقرأ بها الإمام الكسائي.

الثالثة: إخلاص ضمة الفاء فتقلب الألف واواً، فنقول: قُولٌ وِوُوعٌ، وهي لغة فقحس ودبير وهما من فصحاء بني أسد. فإن قيل: فما الباعث على حذف الفاعل في هذا الباب وإقامة المفعول مقامه؟

قلت: لذلك بواعث وهي: الإيجاز والاختصار، والتعظيم والإجلال -أي: لا يصدر عن غيره مثل هذا المقال، كما أشار إليه الإمام فخر الدين الرازي حيث قال: "إنه -سبحانه في الجلال والعلو والعظمة بحيث إنه متى قيل: لم ينصرف الفعل إلا إليه، والإبهام؛ ليذهب السامع كل مذهب ويطلب الصواب من مقصد ومطلب ويعمل العالم فكره الصحيح ليظهر له وجه الصواب بالترجيح فيتحقق القائل في هذا المقام هو الملك المقتدر العلام.

أما (يا): فهي حرف موضوع لنداء البعيد حقيقةً أو حكماً.

علمًا بأن أحرف النداء ثمان: الهمزة، وأي، ويا، وأيأ، وهيا، وآ، وأي، ووا.

الهمزة وأي لنداء القريب، والأدوات الست الأخرى لنداء البعيد.

المنادى لنداء تنقسم إلى قسمين: المنادى المعرب، والمنادى المبني.

النوع الأول: المنادى المعرب: وهذا النوع يكون فيه المنادى منصوب لفظًا لا محلًا ويشمل ثلاثة أنواع، وهي:

1 المنادى المضاف، مثل: يا فاعل الخير أقبل.

2 المنادى الشبيه بالمضاف، مثل: يا طالعاً جيلاً.

3 النكرة غير المقصودة: مثل يا رجلاً خذ بيدي.

النوع الثاني: المنادى المبني: ويكون المنادى منصوباً محلاً، أي يُبنى على ما يُرفع به، ويشمل ثلاثة أنواع أيضاً وهي:

1 العلم المفرد، مثل: يا محمد اجتهد.

2 النكرة المقصودة وهي التي يُقصد بها شخص محدد، مثل: يا معلمان أخلصا في العمل.

المنادى المعرب بـ"ال"، مثل: يَا أَيُّهَا النَّاسُ (أي: منادى مبني على الضم في محل نصب؛ لأنها تُعامل معاملة

النكرة. الهاء: حرف زائد للتنبية، الناس صفة مرفوعة بالضمة على آخره بعد أي. بأسلوب آخر نقول: المنادى ينصب

إذا كان مضافاً نحو: يا عبد الله. أو شبيهاً بالمضاف وهو ما عمل فيما بعده نحو: يا حسناً وجهه، أو النصب نحو: يا طالعاً

جيلاً، أو الجر نحو: يا رقيقاً بالعباد. أو نكرة غير مقصودة نحو قول الواعظ: يا غافلاً والموت يطلبه. وقول الأعمى عندما

يعبر الشارع: يا رجلاً خذ بيدي.

فإن كان المنادى مفرداً فإنه يُبنى على ما يُرفع به لو كان معرباً، فيبنى على الضم نحو: يا زيد، وعلى الألف

نحو: يا زيدان، وعلى الواو نحو: يا زيدون.

وإن كان نكرة مقصودة فإنه يُبنى على الضم من غير تنوين نحو: يا رجل، ما لم توصف.

فإن وصفت ترجع نصبها على ضمها نحو: يا عظيمًا يُرجي لكل عظيمٍ.

وأما (الأرض): فهي الجرم المقابل للسماء، وهي مجملتها كريمةً على الصواب بالبراهين القطعية. ويطلق مجازًا

على أسفل الشيء، كما تُطلق السماء على أعلاه، وهي مؤنثة اسم جنس وهو ينقسم إلى قسمين:

اسم الجنس الجمعي: هو ما يتضمن معنى الجمع مع دلالة على الجنس وله مفرد مميز عنه إما بالثناء أو بياء النسب، مثل:

"برتقال برتقالة"، "تفاح تفاحة"، "تمر تمر"، "يهودي يهودي"، "عرب عربي"، "ترك تركي".

اسم الجنس الإفرادي: هو ما دلّ على الجنس، ويصلح للقليل منه والكثير، نحو: عسل، لبن، ماء، زيت.

أما اسم الجمع: فهو اسم يشمل معنى الجمع، غير أنه لا مفرد له من لفظه، وإنما مفرد من معناه مثل: نساء

امرأة، خيل فرس، جيش جنديّ. وجمعها: أرصاتٌ وأرصور. بفتح الراء وربّما سكنت، وأراض وأراضي على غير قياس.

وأما (البعلي): فهو أمر من البعل، وهو الزرد، والابتلاء: الأزدراد.

يقال: بعلّ اللقمة وزردها بالكسر في كليهما: يَبْلَعُ وَيَزْرُدُ، يريدون بذلك سرعة نزولها في الحلقوم، أي من

غير توقف لمضغ ولا علك ولا غيره.

وأما (الماء): فأصله مَوٌّ بالتحريك، فقلبت الواو ألفًا لتحريكها وانفتاح ما قبلها، ولذلك جمع على أمواه في

جمع القلة⁽¹¹⁾، ومياه في جمع الكثرة⁽¹²⁾، كجَمَل وأجمال، وجمال فالهمزة فيه بدل من الهاء، وتصغيره مُؤَيَّةٌ.

والكاف في "ماء" ضمير جر متصل، كُسر؛ لأنه خطاب لمؤنث وهي الأرض، والإفاضة للاختصاص.

وأما (السماء): فهي الجرم الكروي المقابل للأرض ذات البروج والنجوم. يجمع على: سماوات وأسمية، وتُطلق

مجازاً على السحاب، وعلى المطر، وعلى كلِّ ما علاك فأظلك؛ ولذلك قيل لسقف البيت سماء، ويقال لظهر الفرس أيضًا

سماء لعلوه.

وقد اختار بعض المفسرين أن يكون نداء السماء هنا على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه،

وأن المراد مطر السماء، كقوله تعالى: (وَسَيَلُ الْمَطَرُ فِيهَا وَالْغَيْرُ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَدُوقُونَ)⁽¹³⁾ أي: أهل

القرية. وأما (أقلعي): فأمر عن الإقلاع وهو: الإمساك عن الشيء بذهابه والكف عن الشيء بزواله. ومنه: أقلعت عنه

الحصى أي كفت وأمسكت.

وأما (غيض الماء): فهو مبنى للمفعول من غاضه إذا أنقصه، وهو من الأفعال التي تقع لازمة ومتعدية. يقال:

غاض الشيء وغاضه غيره.

وقد جاء في القرآن العظيم، فمن المتعدى الواقع هنا لبنائه للمفعول، ومن اللازم قوله تعالى في سورة

الرد: (اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ) ¹⁴.

وأما (ال): الداخلة على الماء: ويقال لها أداة التعريف وحرف التعريف، فهي نوعان: عهدية وجنسية.

فالعهدية على ثلاثة أقسام:

الأول: أن يكون مصحوبها معلوماً ذكرياً، كقوله تعالى: (كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا * فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ) ¹⁵. (فيها مضارع = المضارع في رُجَاةٍ = الرُّجَاةُ كَأَنَّهَا كَوَكَّبٌ دُرِّيٌّ)، ¹⁶ وتُعرف هذه بأن يمدَّ الضمير مسدِّها مع مصحوبها.

الثاني: أن يكون مصحوبها معلوماً زهيناً، كقوله تعالى: (إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ) ¹⁷ (إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ) ¹⁸.

الثالث: أن يكون محموداً حضورياً ويقع بعد أسماء الإشارة، نحو: جاءني هذا الرجل، وفي النداء، نحو: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ)، ¹⁹ وإذا الفجائية نحو: خرجت فإذا الأسد، وفي اسم الزمن الحاضر نحو: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ) ²⁰. والجنسية أيضاً على ثلاثة أقسام:

الأول: لاستغراق الأفراد: وهي التي يخلفها (كل) حقيقة، نحو: (إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ)، ⁽²¹⁾ (وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وُخْلُقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا) ²².

الثاني: لاستغراق خصائص الأفراد، وهي التي يخلفها (كل) مجازاً، نحو: زيد الرجل علماً، أي الكامل في هذه الصفة، ومنه قوله -تعالى-: (ذَلِكَ الْكِتَابُ) ²³.

الثالث: تعريف الماهية: وهي التي لا يخلفها كل لا حقيقة ولا مجازاً، نحو: (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ) ²⁴.

إذا علم ذلك فالألف واللام في "وغيض الماء" على قول صاحب المفتاح للمعهود الذهني، وعلى قول العلامة الزمخشري لاستغراق الأفراد.

الأول أولى لوجوه: أحدهما: أنه أبلغ في القدرة وأجل في العظمة وأعلى في نفوذ الإرادة، حيث حصل بمجرد أمر القادر المقتدر النافذ تصرفه في الموجودات وهو على كل شيء قدير تمييز ماء الأرض من ماء السماء، فبلعت الأرض ماءها الذي نبع منها، وبقي ماء السماء الذي صدر عنها حتى غيظ بقدرة الحكيم العلي العظيم.

الثاني: أنه لو حمل على العموم للزم زهاب المياه كلها لورود الأمر وصدور الحكم الربَّاني.

الثالث: أنه بهذا يتنظم (غيض الماء) في سلك (قيل) و(قضى)، فلا يكون تابِعاً للأمرين، إذ يصير التقدير: (وَقِيلَ يَا رُسُلُ أَأَنتُمْ أَتْلُو مَاءٍ)، فبلعت، (وَيُسَمَّى أَفْلَحِي) عن إرسال الماء فأقلعت (وَوَغِيضُ الْمَاءِ) الذي نزل من السماء.

وأما (قضي): فهو فعل ماضٍ بني للمفعول من القضاء: وهو الفصل والحكم والبث والتمام.

وأما (الأمر): فهو واحد من الأمور، وهو لفظ عام يشمل الأقوال والأفعال قال تعالى: (قُلْ إِنْ رَبِّي الْأَمْرُ كُلَّهُ لِلَّهِ) ²⁵، (وَاللَّهُ غَيْبُ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ) ²⁶، ويطلق على الإبداء، قال تعالى: (أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ) ²⁷، وذلك يختص بالله تعالى، وعليه حمل (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي) ²⁸ أي: من إبداعه.

والأمر: التقدم بالشيء سواء كان بلفظ فعل أو ليفعل أو بإشارة أو نحو ذلك. ومنه الأمر هنا أي: قضي الأمر الذي تقدّم به، وأمر من نجاة من نجا وهلاك من هلك، والله أعلم.

والألّف واللام فيه إما للعهد الذكري المتقدم في هذه القصة وهو قوله تعالى: حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ²⁹ أو للعهد الذهني: أي أمر هلاكهم.

وأما (استوت): فمعناه استقرت، أي الفلّك فعاد ضمير الفاعل إلى ما تقدم في هذه القصة من هذه السورة حيث قال: (وَأَصْنَعُ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا) ³⁰ (وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ) ³¹ (حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ) ³².

كُلُّ ذلك عائد إلى الفلّك، وهي السفينة، والفلّك تُستعمل في الواحد والجمع، فهو في الواحد كبناء (فُفْلٌ)، وفي الجمع كبناء (حُمُر). قال تعالى: (وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ) ³³ (وَحَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ) ³⁴.

واستوى يُستعمل لمعانٍ، تقول: استوى الرجل من اعوجاج، واستوى الشيء: اعتدل قال تعالى: (فَأَسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوْقِهِ) ³⁵ واستوى زيد وعمرو: تساويا، قال تعالى: (لَا يَسْتَوِيٰ عِنْدَ اللَّهِ) ³⁶ واستوى الرجل إذا انتهى شبابه.

وإذا عُدي بـ"إلى" فمعناه: قصد، قال تعالى: (ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ) ³⁷، وإن عُدي بـ"على" فالمعنى استقر معتدلاً كما وقع هنا وكقوله تعالى: (لَتَسْتَوِيٰ عَلَىٰ ظُهُورِهِ) ³⁸، وقد تأتي بمعنى استولى.

وأما قوله تعالى: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ) ³⁹ فللناس فيه أقوال أسلمها قول أهل السنة وهو: الاستواء على العرش صفة الله تعالى بلاكيف، يجب على الإنسان الإيمان به ويكل العلم فيه إلى الله - عز وجل.

وأما (على): فحرف جرٍّ بمعنى الاستعلاء. وأما (الجودي): فهو الجبل المعروف المشهور بقرب الموصل.

والألّف واللام فيه زائدة ليست للتعريف تقع في العلم لغلبتها على من هي له كالبيت للكعبة، والمدينة لطبيبة، والنجم للشريا، والجودي لجبل الجزيرة. وهو جبل جزيرة عمّرها الحسن بن عمر بن خطاب التغلبي، وتحيط بها دجلة إلا من ناحية واحدة؛ لأجل هذا سميت بجزيرة ابن عمر.

ومسجد نوح عليه السلام الذي لمّا نزل من السفينة اتخذ مسجداً أو صلّى به هو باقٍ فيها إلى اليوم، وبها أيضاً قرية الثمانين سميت بهذا الاسم لعدّة من كان مع نوح الذين آمنوا به وركبوا معه في السفينة، وبقي بعض خشب

السفينة هناك حتى أدركه الإسلام. والجوديّ: جبلٌ مباركٌ بتشديد الباء، وقُرئ في غير المشهور بتخفيفها. قال الجوهري: وهو جوائزٌ للتخفيف، ويجوز أن يكون سُويّ بفعل الأَنْشَى مثل (حُطِّي) ثم أدخل عليه الألف واللام انتهى.⁴⁰

واستقرت السفينة على الجودي يوم الأضحى من ذى الحجة كما قال قتادة وغيره من أئمة التفسير.

وأما (وقيل بعداً): فتقدم الكلام في قيل، ولكن اختلفوا في القائل، فقيل: هو الله تعالى، وهذا ما قاله العلامة

السكاكي، وقيل: من كلام نوح عليه السلام وأصحابه، ومال إليه الإمام فخر الدين الرازي.

والأصح هو الأول؛ لأن الله تعالى يقول بُعِدَ ذلك في قصة هود: (أَلَا بُعْدًا لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ)،⁴¹ وفي قصة ثمود:

(أَلَا بُعْدًا لَثَمُودَ).⁴² وفي قصة شعيب: (أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ).⁴³

والقائل في ذلك كله هو: الله تعالى، والقرآن يفسر بعضه بعضاً فيجري القول على نسقٍ واحدٍ، والله أعلم.

واختلفوا أيضاً في معنى "بعدا"، هل هو الإبعاد بالظرد ونحوه أو هو الإهلاك؟ فالذي يظهر من أقوال أكثر سلف

المفسرين: أنه الطرد من (بُعْد) بالضم إذا تباعد فهو بعيدٌ يُبْعَدُ، كذلك بُعِدَ الذي هو ضد القرب.

قال ابن عباس رضي الله عنه: بُعِدًا من رحمة الله. وقال غيره: خسارة لهم. وقال آخرون: هو الهلاك ونحوه،

ومن بَعِدَ بالكسر (يُبْعَدُ) بالفتح (بَعْدًا) بفتح الباء والعين، و(بُعِد) بالضم والإسكان أيضاً.

الجوهريُّ جعل (البُعْد) بالضم هو ضد القرب، وجعل (البُعْد) بالفتح هو الهلاك. والصواب ثبوت الضم في

الهلاك أيضاً، وبه ورد القرآن. قال تعالى: (أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِثْتَ ثَمُودَ).⁽⁴⁴⁾ وهو متقضى كلام العلامة الزمخشري.

ويجوز أن يُراد المعنيان، ويكون من التورية والإيهام كما سيأتي بيانه، والله تعالى أعلم.

وأما (اللام): فهي حرف جرٍّ بمعنى الاختصاص، مثل: (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ).⁴⁵ علمًا بأن أصل لام

الجرالفتح، ولكنها كُسرَت مع الظاهر مناسبة لعملها ويدل على ذلك فتحها مع الإضمار، والإضمار يرد الشيء إلى أصله.

(والقوم): في الأصل مصدر قام، فوصف به، ثم غلب على الرجال دون النساء ولذلك قابلهنَّ به.

قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ قَوْمٌ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ

أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ.⁴⁶

قال الجوهري: القوم الرجال دون النساء ولا واحد له من لفظه، وربما دخل فيه النساء على طريق التَّبَعِ؛

لأن قوم كل نبي رجال ونساء.⁴⁷

نصَّ أئمة النحاة واللغويين على أن القوم اسم جمع بمعنى الرجال خاصة، فواحد في المعنى رجل بديل ما

جاء في القرآن الكريم. وفي الحديث وكلام العرب، لكن شموله الرجال والنساء عند الإطلاق ظاهر فيدخل النساء فيه

بالتبعية، بحسب العرف؛ ولهذا حمل ما ورد في القرآن الكريم من ذكر قوم كلِّ نبي على الرجال والنساء. وأما (الظالمين): فهو جمع ظالم، من الظلم الذي هو: وضع الشيء في غير موضعه. وأصله الجور ومجاوزة الحدِّ. وحيث أطلق في القرآن فالمراد به الكفر لقوله تعالى: (أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْخُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كُفْرُونَ) ⁴⁸.

وقد يُراد به ظلم الناس، كقوله -تعالى-: (فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) ⁽⁴⁹⁾، وإِنَّمَا السَّيِّئُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ) ⁵⁰.

وقد يُراد به ظلم النفس، كقوله تعالى: (قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي) ⁵¹، و(فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ) ⁵². وقد يُراد به ذلك كله كما في هذه الآية الكريمة فإن قوم نوح عليه السلام كفروا بالله، وأشركوا به، وظلموا نوحاً بتكذيبهم إياه، وافتراءهم عليه، وظلموا أنفسهم بكفرهم وعنادهم وتكذيبهم.

الأساليب البلاغية في الآية الكريمة

ما فائدة واو العطف هنا في قوله "وقيل" وهلا أتى بخبر واو؟ كما جاء في الآية بعد آخر القصة: (قِيلَ يُنُوحُ أَمِيطُ) ⁵³. عطفت هذه الآية الكريمة على الآية السابقة؛ لأن بينهما التوسط بين الكمالين: وهو أن يكون بين الجملتين اتفاق في الخبرية أو الإنشائية، وتكون بينهما مناسبة، والمانع عن العطف لا يوجد، وكل واحد من هذه الشروط الثلاث موجود بين هذه الآية والآية السابقة، فعطفت عليها. بخلاف قوله: (قِيلَ يُنُوحُ أَمِيطُ) ⁵⁴، فإنه وقع جواباً لتعوُّذ نوح -عليه السلام بربه أن يسأله ما ليس له به علم، فبين (قِيلَ يُنُوحُ أَمِيطُ)، والآية التي قبلها وهي: (قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْوِبْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ) ⁵⁵ شبه كمال الاتصال: هو أن تكون الجملة الثانية جواباً عن السؤال الذي أثارته الجملة الأولى، وهو هنا: ماذا كان رد الله -تعالى على نوح عليه السلام عندما تعوذ به أن يسأله ما ليس له به علم؟ - كما وقع (قَالَ يُنُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) ⁵⁶ جواباً لقوله تعالى: (وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّكَ أَهْلَقُ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكَمِينَ) ⁵⁷. هذه الآية أثارَت السؤال، وهو: ماذا كان رد الله تعالى على نوح عليه السلام عندما قال: إن ابني من أهلي؟

2 جاء التعبير القرآني بالنداء "يا أرض ابلعي"، ولم يأت بـ"وقيل للأرض" كذا "وللسماء" للتبنيه على أن القدرة العظيمة صالحة أن تصيِّر هذه الأجرام المسجِمة إلى حال من يعقل، وتوصل مثل هذه الجمادات الكثيفة إلى رتبة من يعقل، وإلا فخطاب من لا يعقل مهمل، والإقبال عليه بالأمر أمر معضل.

3 تقدم ذكر الأرض في هذه الآية الكريمة حيث تصور نهاية الطوفان. على حين تقدمت السماء في تصوير الله بداية هذا الطوفان. (فَفَتْحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّثْمَرٍ* وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ)⁵⁸.

لما كانت السماء هي الأصل في نزول الماء، والمصدر المعتاد لإمداد الأرض وأهلها بما يستقوت أو إنزاله سيولاً تدمر من يشاء من خلقه كما تصوره الآية الكريمة (فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرْمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِئٍ أُكُلٍ كَحُطِّ وَأَثَلٍ وَشَجِيءٍ مِّنْ بَدْرٍ قَلِيلٍ)⁵⁹ وجب بمقتضى البلاغة أن تقدم السماء، وكما كانت بداية الطوفان دليلاً على عظمة القدرة الإلهية في تحويل الأرض إلى محيط متلاطم الأمواج في أقل من طرفه عين، أظهر الله نفس القدرة في إخفاء هذا الطوفان بمثل ما ظهر به، ولكي تظهر استجابة الأرض والسماء في تنفيذ أمر الله توجه النداء من الله للأرض أولاً أن تبتلع ماءها، ولم يصدر إليها الأمر بالكف عن تفجير الماء؛ لأن الكف وحده يعني بقاء ما عليها من الماء، وذلك لا يحقق الغرض من إزالة كل أثر الطوفان على وجه الأرض، ثم جاء بعد ذلك نداء السماء وأمرها بالكف عن إرسال مائها، حتى لا تعوض السماء ماء تبتلعه الأرض، ومن المعلوم المشاهد في حياة الناس أن المدب التي تعرض لنزول الأمطار ويكون لديها منافذ صناعية لابتلاع الماء لا تتوقف فيها الحياة، مهما كانت الأمطار غزيرة، بخلاف غيرها مما ليست لديها هذه المنافذ، فإن قليلاً من الأمطار يعوق الحياة فيها، ومن ثمر كان تقدير السماء في بدء الطوفان هو الأهم، ولو عكس الترتيب وأمرت السماء أولاً للإقلاء لظل خطر التدمير قائماً، وخاصةً بعد أن وصل الماء إلى المستوى الذي اختفت معه الجبال، وهذا يفسر سراً اختيار "ابلي" في أمر الأرض و"أقلي" في أمر السماء، وهو وحده كاف في الإبانة عن الفرق بين أثر الندائين.

4 جاء التعبير القرآني بلفظ "ابلي" دون "اشري"، و"تشرّي"، و"تثفي"، و"غوري"، و"أذهبي" مما هو مثله أو بمعناه، فمن وجهين: معنوي ولفظي: فالمعنوي: أنه لا يقوم لفظ من هذه الألفاظ ونحوها في معناه الذي وضع له، وهو: ازدراد اللقمة ونحوها في الحلقوم ونحوه دفعة واحدة من غير توقف لمضغ ولا نحوه، كما تقدّم. ولما أمر الله تعالى بتفجير الأرض عيوناً نبع الماء من تلك العيون، فلمّا انتهى أمر الطوفان أمر الله تعالى الأرض أن تبتلع ماءها، يعني الذي خرج من كل عين فرجع الماء غائراً في تلك العيون تبتلعه الأرض بأسرع وقتٍ لأمر الله تعالى وإذنه. واللفظي: حسن الجنس الناقص بين "ابلي" و"أقلي".

5 أضيف الماء إلى الأرض، فجاء التعبير بـ"ماءك" ولم يأت بـ"الماء" كما جاء "وغيض الماء؛ لأنه لما كان ماء الطوفان ماءين: ما نبع من الأرض، وما نزل من السماء، أمر الأرض ببلع الماء الذي نبع منها إعلماً بعظم قدرة قدير قادر على كل شيء، قدير على تمييز كل من الماءين بعد اختلاطهما فسبحانه ما أعظم شأنه!

ولو جاء التعبير بـ"الماء" لم يكن فيه دلالة على هذه القدرة العظيمة.

6 جاء التعبير بـ"أقلي" ولم يأت بـ"أمسكي" ونحوه؛ لأن الإقلاء هو الإمساك عن الشيء بحيث يذهب وينقطع أصلاً، بخلاف "الإمساك" الذي هو التوقف به.

وقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما: "لم تمطر السماء قبل ذلك اليوم ولا بعده إلا من السحاب وفتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب ذلك اليوم".⁶⁰ وأيضاً بينها وبين "ابلعي" جناس ناقص من ألوان علم البديع.

7 لم يُصدر الأمر للماء مع صدوره للأرض والسماء؛ لأنه لو صدر أمره تعالى للماء لم يبق في الدنيا ماء، ولو ذهب ماء الدنيا لخرّب العالم.

والمقصود: ذهاب ماء الطوفان فأمر سبحانه وتعالى الأرض بابتلاع الماء الذي خرج منها للطوفان وبقي الماء الذي نزل من السماء فغاض، وعادت الحال إلى ما كانت عليه قبل الطوفان.

8 عطفت جملة "وغيض الماء" على ما قبلها بالواو دون الفاء مع كونها أظهر في هذا الموضوع؛ لفائدة جليدة وهي: أنه لو عطفت بالفاء هذه الآية لم يكن فيه دليل على امتثال الأمر من كل من الأرض والسماء.

والعطف بالواو دليل على أنهما امتثلا أمر الله تعالى، وكان التقدير: فبلعت الأرض ماءها، وأقلعت السماء عن المطر وغيض، فهذا من أحسن الإيجاز وأبلغه، وهو من إيجاز الحذف.

9 جاء التعبير بـ"غيض" ولم يأت بـ"غاض" المبني للفاعل؛ لوجهين: لفظي ومعنوي:

فاللفظي: مناسبة الفعل قبله وزناً ولفظاً؛ ليجريا على نسق واحد. والمعنوي: لنكتة لطيفة، وهي الإعلام بأن الماء مسخرٌ بأمر الله تعالى وتحت طاعته كسائر المخلوقات ليس لواحد منها تصريف بنفسه في الحقيقة.

فبني للمفعول؛ ليعلم أن له من يغيضه وهو الله سبحانه وتعالى فلو بُني للفاعل لم يكن ذلك منه حقيقة ولا تصريحاً بل بالإيماء والتأويل. والتصريح بالحقيقة أولى سيمًا في هذا المقام.

10 اختير "غيض" على ما هو بمعناه مثل "نقص"؛ لموازنته "قيل".

11 جاء التعبير بـ"الماء" مفرداً دون جمعاً؛ لأنه لو جاء التعبير "وغيضت المياه" لتناول جميع المياه على وجه الأرض وليس الأمر كذلك، بل إنما غاض "ماء السماء" على ما قرّرنا أو (ماء الطوفان) على تقدير العلامة الزمخشري.

12 جاء التعبير بـ"قضي" المبني للمفعول، ولم يأت بـ"انقضي الأمر" أو "قضى الله الأمر" أو نحو ذلك، للاختصار، وللموازنة مع الأفعال التي وردت قبله وهي: "قيل" و"غيض". وللعلامة السكاكي مسلك آخر في مجيء هذه الأفعال

مبنية للمفعول، وهو سلوك سبيل الكناية: "إن تلك الأمور العظام لا تتأق إلا من ذي قدرة لا يُكتنه، قهار لا يغال

فلا مجال لذهاب الوهم إلى أن يكون غيره جلت عظمته قائل يا أرض ويا سماء.⁶¹

13 جاء التعبير بالأمر محلي بالألف واللام دون "أمر قوم نوح" أو "أمرهم" تجنباً من التطويل الذي لا يليق بالمقام، ولو جاء التعبير بـ"أمرهم" ليريف بالمقصود، فجاء التعبير بلفظ المعرف بالأداة الدالة على العهد الذكري الذي ذكر في هذه القصة وهو قوله تعالى: (حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ) ⁶².

14 جاء التعبير بـ"استوت" دون ما في معناها وهو "استقرت" أو "رست" المخصوص بالسفن مع كونه أخصر، فنقول: أما عدوله عن "استقرت" فلوجهين:

أحدهما: الاختصار، فإن "استوت" خمسة أحرف، و"استقرت" سبعة.

والثاني: إن "استقرت" تدل على الاستقرار و"استوت" تدل على ذلك وزيادة، فإنه يدل على الاستقرار والسلامة والاعتدال، قال الله تعالى: (لَيْسَتُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ تَدْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحٰنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُّقْرِنِينَ) ⁶³، و(فَأَسْتَعْلِظْ فَأَسْتَوِي عَلَىٰ سَوْفِهِ) ⁶⁴.

أقرب "استوى" الدالة على أن السفينة استقرت بالسلامة على جبل الجودي فلم يصيبها ما يصيب السفن المشحونة إذا استقرت على الأرض سيما حجارة الجبل فكان هذا من آيات الله وجملة المعجزات الجارية على يديه صلى الله عليه وسلم، وهذه نكتة في غاية اللطف والحسن، والله أعلم.

وأما عدوله عن "رست" مع الاختصار، وأنها مخصوصة بالسفن في لسان العرب، لا يقولون: إذا وقفت السفن غير ذلك؛ لأنه لو جاء التعبير بـ"رست" لم يكن موافقاً للمعنى المراد بالاستواء؛ لأن الاستواء يكون على الجبل والرسو على الماء، كما في قول أهل التفسير "تسامخت الجبال يومئذٍ وتطاوت من الغرق وتواضع هو لله فلم يغرق واستوت عليه سفينة نوح شهراً" ⁶⁵.

15 لم يصرح بفاعل "استوت"؛ لأنه لو صرح بذلك لكان تطويلاً بلا فائدة فإن الضمائر التي تقدمت عائدة عليها جملة بعد جملة، فقال تعالى: (وَأَضْنَعُ الْفُلْكَ) ⁶⁶، و(فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا) ⁶⁷ أي في الفلك، وقال: (وَقَالَ أَزْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرئَهَا وَمُرسِلَهَا إِنَّ رَبِّي لَخَفُورٌ رَّحِيمٌ) ⁶⁸ وهي تجري حتى قال: "واستوت" أي هي يعني الفلك، والمقام مقام اختصار كما رأيت.

16 لم يأت التعبير بـ"جبل الجودي"؛ لأن الجودي علم لهذا الجبل المعروف، والألف واللام فيها ليست للتعريف، بل زائدة تقع في العلم لغلبيتها على من هي له كالبيت للكعبة، والمدينة لطيبة، والنجم للشريا، والجودي لجبل الجزيرة. لم يحتج إلى ذكر الجبل؛ لأن هذه الأسماء في نفسها أعلام، فلوقيل على جبل الجودي لكان من إضافة الشيء إلى نفسه وهو

تطويل بلا فائدة، والمقام كما تعرف مقام اختصار وإيجاز، فعلم أنه جبل من حيث العلمية، ولذلك يقول تعالى: (وَوَدَّيْتُهِ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ)⁶⁹ يعني بذلك جبل الطور المعروف، وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام، ولم يقل في شيء من ذلك جبل الطور إيجازاً واختصاراً للعلم به.

17 استوت السفينة على الجودي؛ لأنه ورد في التفسير، وصحَّ عن الإمام الكبير التابعي الجليل الحجة في علم التفسير صاحب عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ترجمان القرآن أنه قال: "تشامخت الجبال وتناولت يوم الطوفان من الغرق وتواضع جبل الجودي لله تعالى فلم يغرق، فاستوت عليه السفينة".⁷⁰ والله تعالى في مخلوقاته أسرار لا يعلمها إلا هو "ومن تواضع لله رفعه الله".

وقيل: كان الجودي جبلاً منخفضاً فكان استواء السفينة عليه دليلاً على انقطاع مادة الماء، والله أعلم.

18 في قوله "بُعْدًا" نكتة عدل بها أن يقول "طرذاً" أو "هلافاً" أو "سحقاً"؛ للتورية التامة أو الإيهام فالتورية التامة: أن يكون للكلمة معنيان، فتستخدم في كليهما أي يُقصد منها كلا المعنيين في وقت واحد.

وأما الإيهام: أن تكون الكلمة ذات معنيين؛ قريب وبعيد، فالمتكلم يستخدمها في المعنى البعيد والمخاطب يفهم منها المعنى القريب إذ يصح في "بُعْدًا" كل من المعنيين، الذي هو "الطرد ضد القرب"، والذي هو الهلاك. ويشهد للأول قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ غَضَبُ اللَّهِ وَأَلَمَاتٌ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)⁷¹. ويشهد للثاني قوله تعالى: (أَلَا بُعْدًا لِلْمُذِينَ كَمَا بَعْدَتْ ثُمُودُ)⁷².

والدليل على جواز إرادة المعنيين وكونه من التورية التامة: أنه لم يرد "بُعْدًا" بالفتح، فإنه لو أراد الهلاك فقط لكان بالفتح.

وكذا يصح في هذه الآية أيضاً على مقتضى قول العلامة الزمخشري، ومن قال بقوله: إن المراد بالبُعد الهلاك، فيكون من الإيهام، وقد يصح في هذه الآية إيهام آخر على قول من جعل "ويا سماء" على حذف مضاف أي: (يامطر السماء) يحتمل المعنيين ويكون البعيد منهما مراداً، والله أعلم.

19 جاء التعبير بـ "بُعْدًا" للقوم الظالمين " ولم يأت بـ "بُعْدًا" للظالمين" مع أنه أخصر، والمقام مقام إيجاز؛ للإيضاح ورفع اللبس والإعلام بأهم قوم نوح الذي أرسل إليهم فكفروا به، فإنه لما جاء في أول القصة وبعده (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ؛⁷³ (وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ)،⁷⁴ كرر ذكر القوم في سبعة مواضع، ناسب أن يختتم القصة عند ذكر ما آل إليه أمرهم بقوله: "بُعْدًا" للقوم الظالمين " أي قوم نوح المقدم ذكرهم، فأق بالالف واللام التي هي للعهد الذكرى كما تقدم، فكان ذلك كقوله تعالى في آخر قصة عاد الآتية بعد هذه القصة: (أَلَا بُعْدًا لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ)⁷⁵.

ولولم يقل "للقوم" لحصل في الكلام لبس؛ فللايضاح وهو أن يذكر المتكلم كلاماً في ظاهره لبس ثم يوضحه في بقية كلامه بما يزيل اللبس ليبين أن القوم الذين سبق ذكرهم في الآية المتقدمة حيث قال: "كلما مرّ عليه ملأ من قومه سخر وامنه"، هم الذين وصفهم بالبعد ليعلم أن كلمة "القوم" ليست فضلة، وأنه يحصل بسقوطها لبس في الكلام. 20 جاء التعبير بـ "للقوم الظالمين" ولم يأت بـ "الناس" ونحوه مما يقوم مقامه؛ لحكمة ظريفة وفائدة شريفة ينبغي التنبيه عليها، والإصغاء إليها، وهي: أن القوم حيث ورد الإخبار عنهم مطلقاً كان المراد بهم المخالفين لنبيهم الخارجين عن طاعته والجملة الطغام (أراذل الناس)، من قوله: قام فلان على فلان أي خالفه وخرج عليه، ومنه المقاومة في المصارعة وغيرها، وتقاو موافي الحرب: أي قام بعضهم على بعض، قال تعالى: (كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ)،⁷⁶ (كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ)،⁷⁷ وقال تعالى: (فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ)،⁷⁸ وقال تعالى: (وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ)⁷⁹ ومعلوم أن كل قومهم لم يكذبوهم.

وذلك بخلاف الناس فإنه حيث أطلق يراد به الفضلاء الأكياس دور من يتناوله اللفظ تجوزاً نظراً إلى معنى الإنسانية. ولهذا يقال: فلان ليس فيه إنسانية، قال تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ)⁸⁰ أي كما فعل من فيه معنى الإنسانية. وقال تعالى: (أَفَرِحْتُمْ بِالنَّاسِ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ)،⁸¹ أي من وجد فيه معنى الإنسانية، أي إنسان كان.

وانظر إلى مخاطبة الأنبياء قومهم بلفظ يا قوم، والله تعالى يخاطب أمة محمد صلى الله عليه وسلم ويأمره أن يخاطبهم عند الإطلاق بـ "يا أيها الناس"، "قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ". فتعين حينئذ أن يذكر هنا القوم دور الناس وغيره مما لا يقوم مقامه.

21 جاء التعبير بـ "الظالمين" ولم يأت بـ "الكافرين"؛ ليطابق مع ما تقدّم من قول الله تعالى في هذه القصة من هذه السورة وهو: (وَلَا تُحِطُّنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ)⁸².

ولا يخفى ما فيه، إذ لقائل أن يقول: بل ما كانت إلا لكفرهم وفسقهم بمقتضى الآيات الأخرى، والكلام في نكتة ذكر الظالمين هنا دور غيرهما؛ إذ يصح مجيء كل ما هنا فلا بد من منحصص.

22 جاء التعبير بـ "يا أرض" بالضم دور "يا أرض" بالكسر على الإضافة، فإن ذلك يقتضي تشريف الأرض وتكريمها بإضافتها إلى نفسه المقدّسة، فترك ذلك إيراداً للتهاون الذي من أجله اختار لفظ "يا" على أخواها.

23 ذكر مفعول "ابلي"؛ لئلا يستلزم تركه ما ليس بمراد من تعميم الابتلاء للجبال والتلال والبحار وساكنات الماء بأسرهن، نظراً إلى مقام ورود الأمر الذي هو مقام عظمة وكبرياء.

ولم يذكر مفعول "أقلعي"، إنه حيث بيّن المراد في مفعول "ابلعي"، من أنه بلع الماء وحده، عُلم أن المقصود بالإقلاء إمساك السماء عن إرسال الماء فلم يذكر متعلق "أقلعي" اختصارًا واحترارًا عن الحشو المستغنى عنه.

24 فائدة ختم القصة بما ختمت به، وهو الدعاء عليهم إشعارًا وإيدانًا بتمام المراد من الإخبار عن ملخص شأن هذه القصة، وأهم أخذوا جزاءهم وفعل بهم ما يتستحقونه، (وَلَا يُظْلَمُ رَبُّكَ أَحَدًا)⁸³.

علمًا بأن في الآية الكريمة إيجاز قصر: وهو تقليل اللفظ وتكثير المعنى كقوله تعالى: (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)،⁸⁴ وإيجاز حذف: وهو الاستغناء بالمذكور عمّا لم يذكر، سواء كان حرفًا أو كلمة أو جملة أو أكثر، كقوله تعالى: (وَسئَلِ الْقَرْيَةَ)⁸⁵.

والإرداف: وهو أن يريد المتكلم معنى فلا يعبر عنه بلفظه الموضوع له، ولا بلفظ الإشارة الدال على المعاني الكثيرة، بل بلفظ هو ردف المعنى الخاص وتابعه يقرّر ذلك المعنى به، مثل قول الله تعالى: (وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ)⁸⁶ فإنه عبر عن استقرار السفينة بهذا المكان استقراراً متمكناً بلفظ قريب بلفظ المعنى المقصود.

وقال أبو حيان: الإرداف في قوله: "استوت على الجودي" فقوله: "استوت" كلام تام، و"على الجودي" مردف قصدًا للمبالغة في التمكن بهذا المكان.⁸⁷

والإشارة: وقد يقال لها الإيحاء وهو: أن يشتمل اللفظ القليل على معانٍ كثيرة بإيحاء إليها وذكر لمحة تدل عليها، كقوله تعالى: (فَعَشِيَهُمْ مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ)⁸⁸.

ومما عدّوه من الإشارة في الآية قوله تعالى: "وغيض الماء" فإنه عبّر بهذين اللفظين عن معانٍ كثيرة، وعدّ بعضهم من الإشارة قول امرئ القيس: ففانبك من ذكرى حبيبٍ ومنزل، فإنه في هذه الكلمات البسيطة وقف واستوقف، وبكى واستبكى، وذكر الحبيب والمنزل.

والتورية التامة والإيحاء كما تقدم.

وحسن التعليل: وهو أن يدعى المتكلم علة للشئ غير علته الحقيقية كما في قول الشاعر:

عداتي لهم فضلٌ عليّ ومِنَّةٌ فلا أذهب الرحمنُ عني الأعدايا

هُمُ فحوصوا عن زلتني فاجتنبتها وهم نافسوني فاكتسبتُ المعاليا

ومنه في الآية الكريمة "وغيض الماء" فإن غيظ الماء علة استواء السفينة على الجودي.

والتسهيّم: هو أن يتقدم في الكلام ما يدل على ما يتأخر بالمعنى أو باللفظ، فتارة يدل على عجز البيت والفقرة، وتارة يدل على ما قبل ذلك، فأول الآية إلى قوله "أقلعي" يقتضى آخرها.

وإيراد المثل: وهو أن يورد المتكلم مَثَلًا في كلامه، كقوله صلى الله عليه وسلم "لا يُلدئ المؤمن من جُحر مرتين"،⁽⁸⁹⁾ ومنه في الآية الكريمة قوله تعالى: "وقضي الأمر" وهو مثل مشهور لكل شيء تَرَ وفات تداركه. والجناس: الذي تقدم ذكره.

والطباق: وهو الجمع بين الشيء وضده، كاليل والنهار، والسواد، والبياض، ومنه في الآية الكريمة "يا أرض ابلعي" و"يا سماء..."، حيث طابق بذكر الأرض والسماء.

والمقابلة: وهي أن يُؤتى بمعنيين متوافقين أو بمعان متوافقة ثم بما يقابلها على الترتيب، كما في قوله تعالى (فَلْيُصْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)⁹⁰ ومنها في الآية الكريمة "يا أرض ابلعي" و"يا سماء أفلعي". والاحتراس: وهو أن يأتي المتكلم بمعنى يُتوجه عليه دخلُ فيفطن له، فيأتي بما يخلصه من ذلك، ومنه في الآية الكريمة "وقيل بُعدًا للقوم الظالمين" إذ الدعاء عليهم مشعر بأنهم مستحقوا الهلاك احتراسا من ضعف العقل يتوهم أن العذاب شمل من يستحق ومن لا يستحق، فتأكد بالدعاء كونهم مستحقين.

والتهذيب؛ لأن مفردات الآية الكريمة موصوفة بصفات الحسن، عليها رونق الفصاحة، سليمة من التعقيد والتقديم والتأخير.

والتمكن؛ لأن الفاصلة مستقرة في قرارها، مطمئنة في مكانها. وحسن النسق؛ لأن الله سبحانه وتعالى عطف القضايا بعضها على بعض بحسن ترتيب. والائتلاف، أي ائتلاف اللفظ مع المعنى؛ لأن كل لفظة منها لا يصلح موضعها غيرها. والانسجام: وهو تحدد الكلام بسهولة كما ينسجم الماء. وحسن البيان؛ لأن السامع لا يتوقف في فهم الكلام ولا يشكل عليه شيء. والتعريض: فإنه تعالى عرّض بسالك مسلكهم في تكذيب الرسل ظلماً، وأن الطوفان وتلك الأمور الهائلة ما كانت إلا لظلمهم.

والوصف: وهو قُصُ القصة ووضعها بأحسن وصف بحيث استعمل نعت ألفاظها وصفات معانيها. فما أعظم إعجازها! آية عدد ألفاظها تسع عشرة كلمة، جمعت هذه الأنواع وحوت علوماً لم تقرر الأسماء، واشتملت على فنون العلوم، ولعل ما غاب عنا فيها من المنطوق والمفهوم أضعاف ما ذكرنا، وأمثال أمثال ما بيننا. من خلال كتابة هذا المقال توصلت إلى النتائج التالية:

1 القول في الآية الكريمة بالمعنى الحقيقي وهو اللفظ المركب من الحروف، المستعمل مفرداً كان أو جملة، وليس بالمعنى

المجازي؛ لأنه أعظم في القدرة وأبلغ في العظمة، وأقوى في الحجة. والمقام يقتضي ذلك، وما كان كذلك فهو أولى بالترجيح وأحرى بالتصحيح.

2 الألف واللام في "وغيض الماء" للعهد الذهني عند العلامة السكاكي لاستغراق الأفراد؛ لأنه أبلغ في القدرة، وأعلى في نفوذ الإرادة، حيث حصل بمجرد أمر القادر المقتدر تمييز ماء الأرض من ماء السماء.

3 الألف واللام في "الجودي" زائدة، ليست للتعريف تقع في العلم لغلبيتها على من هي له كالبيت الكعبة، والمدينة لطيبة، والنجم للشريا، والجودي للجبل.

4 لام الجر في الأصل تكون مفتوحة، لكنها كسرت مع الاسم الظاهر مناسبة لعلمها، ويدل على ذلك فتحها مع الإضمار، والإضمار يرد الشيء إلى أصله.

5 كلمة "على" حرف جر، وهي بمعنى الاستعلاء في الآية الكريمة، و"لام" كذلك حرف جر، وهي بمعنى الاختصاص في هذه الآية الكريمة.

6 كلمة "الظالمين" أو الظلم "عندما تذكر في القرآن الكريم فقد يراد بها الكفر، وقد يراد بها ظلم الناس، وقد يراد بها ظلم النفس، وقد يراد بها ذلك كله كما في هذه الآية الكريمة؛ لأن قوم نوح عليه السلام كفروا بالله، وأشركوا به، وظلموا نوحاً بتكذيبهم إياه، وافترائهم عليه، وظلموا أنفسهم بكفرهم وعنادهم وتكذيبهم.

7 عطف هذه الآية الكريمة على الآية التي قبلها؛ لأن بينهما التوسط بين الكمالين: وهو أن يكون بين الجملتين اتفاق في الخبرية أو الإنشائية، وتكون بينهما مناسبة، والمانع عن العطف لا يوجد، هذه الشروط الثلاث متحققة بينهما.

8 جاء التعبير القرآني بالإقلاء ولم يأت بالإمساك؛ لأن الإقلاء هو الإمساك عن الشيء بحيث يذهب وينقطع أصلاً، بخلاف "الإمساك" الذي هو التوقف به.

9 من ظواهر علم المعاني الموجودة في هذه الآية الكريمة:

الفصل والوصل، التقدير والتأخير، الذكر والحذف، التعريف والتنكير، الإيجاز بالحذف وبالقصر.

10 الآية الكريمة تحتوي على ألوان علم البديع التالية:

الجناس، المقابلة، الطباق، التورية والإيهام، حسن التعليل، إيراد المثل، الإرداف، التسهيم، التعريض، حسن

البيان -

الهوامش

- ¹ سورة هود، الآية 44
- ² الكتاب، سيويه، تحقيق: د. إميل بديع يعقوب، الطبعة الثانية، 2009م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج 2، ص 191
- ³ تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، ابن مالك، تحقيق: محمد كامل بركات، الطبعة الأولى، بدون تاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص 174
- ⁴ سورة العنكبوت، الآية 15
- ⁵ سورة الحديد، الآية 26
- ⁶ سورة الشورى، الآية 3
- ⁷ سورة هود، الآية 44
- ⁸ سورة المجادلة، الآية 8
- ⁹ سورة الحشر، الآية 10
- ¹⁰ تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعلوم الأقاويل في وجوه التأويل، محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: خليل مامون شيا، الطبعة الثالثة، عام 1430هـ، 2009، دار المعرفة بيروت، لبنان، ج 2، ص 402401
- ¹¹ هو الجمع الذي يدل على عدد لا يقل عن ثلاثة ولا يزيد عن عشرة، وله أربعة أوزان وهي: أفعلة، أفعل، أفعال، وفِعْلَةٌ
- ¹² هو الجمع الذي يدل على عدد لا يقل عن ثلاثة إلى ما لا نهاية له، له العديد من الأوزان نذكر منها: مفاعل، مفاعيل، فِعْأَل، فُعْأَل، فُعُول
- ¹³ سورة يوسف، الآية 82
- ¹⁴ سورة الرعد، الآية 8
- ¹⁵ سورة المزمل، الآية 1615
- ¹⁶ سورة النور، الآية 35
- ¹⁷ سورة الفتح، الآية 18
- ¹⁸ سورة التوبة، الآية 40
- ¹⁹ سورة الأنفال، الآية 64
- ²⁰ سورة المائدة، الآية 3
- ²¹ سورة العصر، الآية 2

²² سورة النساء، الآية 28

²³ سورة البقرة، الآية 2

²⁴ سورة الأنبياء، الآية 30

²⁵ سورة آل عمران، الآية 154

²⁶ سورة هود، الآية 123

²⁷ سورة الأعراف، الآية 55

²⁸ سورة الإسراء، الآية 85

²⁹ سورة هود، الآية 40

³⁰ أيضا، الآية 37

³¹ أيضا، الآية 38

³² سورة هود، الآية 40

³³ سورة الحج، الآية 65

³⁴ سورة يونس، الآية 22

³⁵ سورة الفتح، الآية 29

³⁶ سورة التوبة، الآية 19

³⁷ سورة البقرة، الآية 29

³⁸ سورة الزخرف، الآية 13

³⁹ سورة طه، الآية 5

⁴⁰ تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الطبعة الرابعة، 1990م، دار الكتاب

العربي، القاهرة - مصر، ج 2، ص 262261

⁴¹ سورة هود، الآية 60

⁴² أيضا، الآية 68

⁴³ أيضا، الآية 95

⁴⁴ أيضا، الآية 95

⁴⁵ سورة الشعراء، الآية 90

⁴⁶ سورة الحجرات، الآية 11

- 47 ايضا
- 48 سورة هود، الآية 18
- 49 سورة الشورى، الآية 40
- 50 ايضا، الآية 42
- 51 سورة الأنبياء، الآية 30
- 52 سورة فاطر، الآية 32
- 53 سورة هود، الآية: 48
- 54 ايضا
- 55 ايضا، الآية: 47
- 56 سورة هود، الآية: 46
- 57 ايضا، الآية: 45
- 58 سورة القمر، الآية: 1211
- 59 سورة سبأ، الآية: 16
- 60 الدر المنثور في التفسير المأثور، جلال الدين السيوطي، ط1، 2011م، مطبعة محمد أمين دمج، بيروت، لبنان، ج6، ص134
- 61 مفتاح العلوم، يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي، تحقيق: نعيم زرزور، الطبعة الأولى، عام1987م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص419
- 62 سورة هود، الآية: 40
- 63 سورة زخرف، الآية: 13
- 64 سورة الفتح، الآية: 29
- 65 الدر المنثور في التفسير المأثور، جلال الدين السيوطي، ج3، ص335
- 66 سورة هود، الآية: 37
- 67 سورة المؤمنون، الآية: 27
- 68 سورة هود، الآية: 41
- 69 سورة مريم، الآية: 52
- 70 الدر المنثور في التفسير المأثور، جلال الدين السيوطي، ج3، ص335
- 71 سورة البقرة، الآية: 161

- 72 سورة هود، الآية: 95
- 73 ايضا، الآية: 25
- 74 سورة المؤمنون، الآية: 33
- 75 سورة هود، الآية: 60
- 76 سورة الشعراء، الآية: 105
- 77 سورة الشعراء، الآية: 160
- 78 سورة الحج، الآية: 4342
- 79 سورة الأنعام، الآية: 66
- 80 سورة البقرة، الآية: 13
- 81 سورة النساء، الآية: 54
- 82 سورة هود، الآية: 37
- 83 سورة الكهف، الآية: 49
- 84 سورة البقرة، الآية: 179
- 85 سورة يوسف، الآية: 82
- 86 سورة هود، الآية: 44
- 87 البحر المحيط، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الشهير بأبي حيان، الطبعة الأولى، 1993م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج 5، ص 227
- 88 سورة طه، الآية: 78
- 89 سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير الأزدي السجستاني، أبو داود، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، الطبعة الأولى، 2009م، دار الرسالة العالمية، القاهرة، مصر، ج 5، ص 85
- 90 سورة التوبة، الآية: 82.